الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٨ —

الديانة المصرية

العلم والأدب والفن والقانون

رأى رجال الدين أن الشعب لا يتبع التقاليد الدينية إلا إذا امتزجت تعاليمها بنفوس أبنائه امتزاجاً قويا ، وهذا لا يتيسر إلا إذا بشر بالدين رجال مثقفون فصحاء يملكون أعنة البلاغة ويستولون على أزمة البيان . وإذاً ، فهم مضطرون قبل كل شيء إلى أن يفسحوا في مدارسهم للأدب أمكنة واسعة وأن ينزلوه بين معارفهم منزلة عالية وقد فعلوا ، فكان من نتائج هذه العناية الفائقة بالأدب أن ظهر كتاب « افتاح حتب » وزير الملك « إيزيس » الذي هو أقدم كتاب في الدنيا والذي يرى فيه القارىء من الحكم والنصائح والأمر باحترام المرأة وإعزازها والتحذير من إغضاب الملوك والرؤساء والحث على طلب العلم واعتباره أهم ضروريات الحياة وألزم واجبات الأشخاص من كل الطبقات إلى غير ذلك من وصف حلاوة الشباب ولذة القوة ومرارة الشيخوخة وانكسار النفس في أيامها وانطفاء مصباح الآمال والأحلام إلى آخره إلى آخره ، مما يجعل من غير الممكن أن يكون كتاب هذا شأنه من منتجات عقول شابة في الأدب ، ناشئة في الكتابة والتأليف .

ومن الطبيعي أن الأمة التي يصل فيها الدين والأدب إلى هذه المرتبة الرفيعة تسمو فيها الحالة الاجتماعية سموا عظيما يتبعه تقدم في جميع نواحي الحياة ، لأن الأمة تنبغ في المخترعات وتبرع في الفنون بمقدار حاجتها إليها ، وهذه الحاجة تتعدد تبعا لتقدم المدنية التي هي أولى مظاهر السمو الاجتماعي .

وإذن ، فالدين يتطلب سمو الأدب ، والأدب عامل أساسي في الرقي الاجتماعي ، والمدنية أولى مظاهر هذا الرقي ، والحاجة إلى الاختراع والفن طليعة نتائج تلك المدنية . وهذه هي الدرجات التي صعدت عليها الدولة المصرية القديمة حتى وصلت إلى قمة سلم الحياة العالية فارتقت فيها الفنون الجميلة على اختلاف ألوانها حتى وصلت إلى درجة حيرت كبار الفنيين في العصر الحديث .

لم تكن معارف المصريين إبان الدولة القديمة ناشئة ولا في أول عهدها بالحياة كما يزعم الجاهلون ، ويدل على ذلك أنه في أواخر القرن الماضي اكتشف عالم من كبار المستعمرين الفرنسيين خلف الهرم الغربي جثة موظف كبير من موظفي الأمبراطورية الأولى كتب على تابوته العبارة التالية : « هذه جثة الحارس الأكبر لدار الكتب الملكية » .

وقد علق الأستاذ « ماسبيرو » على هذه العبارة في كتابه « تاريخ الشرق القديم » طبعة أولى بأن هذه المكتبة التي كان هذا الموظف الكبير مديرها أو حارسها كانت تحوي بين جدرانها كثيراً من الكتب في الأدب والفلسفة والأخلاق والتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والطب والحساب والهندسة والفلك والسحر والتنجيم

ويؤكد الأستاذ « ماسبيرو » أن هذه المواد التي كانت موجودة في أدمغة العلماء ومسطرة في أوراق البردي لم تكن أثناء الدولة القديمة في عهد الحداثة والتكوين ، بل كانت قد نضجت نضوجاً تاماً وأصبحت في دور الانتاج العملي المفيد ، إذ أن من المستحيل أن تبنى الأهرام في عصر بادىء في الهندسة لم يتعمق أهله — أو العلماء منهم على الأقل — في غوامض النظريات ومعقد الرسوم ؛ وكذلك من المستبعد عقلا أن نتصور أن المحاكم التي لا تحكم على المجرم إلا بعد سماع المرافعات الشفوية الطويلة ، وقراءة المذكرات التحريرية المقدمة من المتهم يكون قضاتها ومستشاروها حديثي عهد بالقوانين المدنية والجنائية

وإني أنتهز فرصة هذه المناسبة فأذكر لك مثلا من أمثلة استقلال هذا القضاء وعدالة الملوك في تلك العصور الغابرة التي تتصور أنها كانت مفعمة بالظلم والاستبداد :

حاولت زوجة « باتوو » الخائنة قتل زوجها عدة مرات

قبل أن يجلس على عرش مصر ، فلما تولى المملكة لم يشأ أن يقتلها دون تبرير هذا القتل بحكم المحكمة ، ولم يكن شيء أسهل عليه من أن ينتقم بالقتل من زوجة مجرمة أثيمة ، ولكنه أعلنها بالحضور أمام المحكمة التي تألفت من أكابر رجال القضاء في الدولة ، ووقف جلالته خصما نزيهاً لهذه الخائنة ، وتلا مذكرة الاتهام على مسامع القضاة ثم ترك لهم الكلمة ، فطلبوا إليها أن تدافع عن نفسها ، ولكنها حنت رأسها مشيرة إلى الإفلاس من البراهين وإلى التسليم بالاجرام ، فأصدر القضاة حكمهم عليها بالاعدام

فانت ترى هذه الصورة العادلة التي صور بها مؤلف القصة فرعونه العظيم . وقد تكون هذه القصة خيالية ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن الكتاب في كل عصر يستمدون مؤلفاتهم مما يقع حولهم من الحوادث ولو في شيء من المبالغة والمغالاة فنحن نستطيع أن نؤكد أنه كان في تلك العصور الغابرة قضاة يستندون في أحكامهم إلى قوانين مدنية وجنائية ، وأنهم كانوا يسمعون ويقرأون دفاع المتهمين وشهادة الشهود ، بل يبالغ الأستاذ « نوبارى » المستمصر الألماني فيؤكد لنا أن القضاء في تلك العصور كان لا يقل عنه في عصرنا الحاضر بحال

واذا غادرنا القضاء وعنايته بالقوانين وتوجيه العدالة والإنصاف واهتمامه بأنواع الدفاع وضروب المرافعات ثم اتجهنا إلى الطب ألفيناه قد بلغ حد النضوج ووصل إلى درجة توشك أن تلحق بالكمال . ويبرهن على ذلك ثقة الأطباء بأنفسهم وتحققهم من معارفهم إلى درجة المجازفة بحياتهم في سبيل توطيد تلك المعارف ، فقد كان الطبيب إذا اخترع نوعا جديداً من الدواء لم يكن قد سبقه إليه طبيب آخر يرفع اختراعه إلى هيئة الاختصاص حتى إذا نظرت فيه استدعته أمامها وتلت عليه نص الشرط الذي نلخصه فيما يلي : — « للطبيب أن يعالج مريضه بهذا الدواء الذي اخترعه ، فاذا شفي وثبت بالكشف الطبي أنه شفي بسبب هذا الدواء ، منح مكافأة مادية قدرها كذا وكذا . وأخرى معنوية ، وهي تدوين اسمه واسم دوائه في الدواوين الرسمية والكتب العلمية المقررة ، وإذا مات المريض مسموماً بدوائه حكم على الطبيب بالاعدام »

فاذا قبل الطبيب هذا الشرط وأخذ منه توقيع بالقبول أمام شهود عدول صرح له بالابتداء في تجربة الدواء .

وفي رأينا أن هذا النظام المصري القديم أدق وأحرص على سلامة الجمهور من نظام القرن العشرين الذي لا يتحرز فيه الأطباء من العبث بأرواح المرضى الذين أصبحوا لهم عبيداً يأتمرون بأوامرهم التي لا يلاحظ فيها قانون ولا تترتب عليها أية مسئولية رادعة ، بل لا يترتب عليها سؤال بسيط من قبل القضاء . وضحايا الأطباء والصيادلة الذين لا يعنون العناية الكافية بتركيب الدواء لا تندرج تحت حصر ، ومهما يكن من الأمر — فهل تتصور أن أطباء ناشئين في الطب أو مبتدئين في الحكمة لم يقتنعوا بعد بتجاربهم العلمية يقدمون على تعريض حياتهم للخطر؟

أحسبك بعد أن صورت لك هذه المنزلة العالية التي ارتقى إليها الطب المصري في العصور القديمة توافقني على أن الآراء القائلة بأن الطب المصري كان نوعاً من الرقى والتعاويذ السحرية أو مشوبا بها كما صرح الأستاذ أمين الخولي في مذكراته صفحة ٤٤ هي ضرب من الخرافات التي ليس لها من الأدلة العلمية مستند ولا دليل

وإذا ألقينا نظرة متأملة على الرسم مثلا وجدناه لا يقل روعة وجلالا عن بقية الفنون والعلوم الأخرى التي أسلفنا — لك أنها كادت تصل إلى مرتبة الكمال .

وأخص ما يمتاز به الرسم المصري هو ما يشاهده عليه الرائي من الحياة لأنك حين تنظر إلى ما يرسمونه من صور لا تشك في أنها حية تستمتع بالحركة والاحساس وذلك لإتقان رسمها وإجادة الفن فيها .

ولقد بلغ هذا التصوير درجة جعله يعم المعابد والمقابر ثم يتخطاها الى المنازل والمنتديات ، والحدائق والمتنزهات والمحاكم والدواوين وينقش على الحوائط والأسوار والسقوف والأراضي وفي غرفة النوم وحجر الاستقبال وقاعات المائدة وفي كل مكان . وإليك ما قاله الأستاذ « بريستيد » في هذا الشأن :

« وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة . بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى في تلك العصور القديمة إلى أن يقول : « بل كان المصري مغرماً بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجه ، ولذلك نقش زهر (اللوطس) على أيدي ملاعقه وشرب النبيذ في أقداح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوطس ، وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج ، ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على عمد

شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوطس المنتهية أعاليها ببراعيم ذلك النبات ، وكثيرا ما زين المصرى سقوف حجراته برسوم الحمام والفراش الطائرة بين الأشجار . وكان يحلى أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك ونشاهد بها أحياناً ثيراناً وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة ، ويرى الناظر أن هذه الطيور تسعى فى الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذى يريد افتراسها .

أما الأدوات المنزلية المستعملة يومياً فى منازل الأغنياء فجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المرئيات فى خلال القطر المصرى [1] .

وليس هذا هو كل شيء فى رقى الصناعات العملية فى مصر بل إن هناك خوارق ومعجزات ظهرت على أيدى أولئك الصناع المهرة البارعين ، فالتاريخ يحدثنا بأن الصائغين قد بلغوا فى صناعة الحلى دقة لم يسع فنيي مصر الحديث إلا أن يعترفوا أمامهم بعجزهم الكامل عن مجاراتها ، وهو ينبئنا كذلك بأن صناع الكؤوس والأكواب قد وصلوا فى صناعتهم إلى حد أن يبتدعوا أكواباً من الصوان تشف عما في دخلها فيرى فى وضوح كما يرى ما هو فى داخل الزجاج سواء بسواء ، وأن النساجين توصلوا إلى صنع غلائل من الكتان شفافة لا تحجب ماوراءها ولاريب أن هذا هو فى الصناعة أعلى مراتب الاعجاز .

ويحدثنا الأستاذ « بريستيد » فى صفحة ٦٦ من كتابه « أن مهندسى العمارة والبنائين عرفوا شيئا كثيراً من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة بيت الخلاف يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد وغير ذلك مما يبرهن على ان العلوم العقلية والعملية كانت قد وصلت فى مصر إلى أبعد مدى تستسيغه تلك العصور .

هذا ، ولما كانت الفلسفة الهندية هى أهم الفلسفات الشرقية جميعها بعد فلسفة مصر من ناحية وأقدمها إلا الفلسفة المصرية من ناحية أخرى فقد آثرنا أن نثنى بها بعد أن بدأنا بفلسفة وادى النيل التى هى مبدأ الجميع فى رأى أدق العلماء والباحثين .

(يتبع) محمد غلاب

(١) راجع صفحة ٦٧ من كتاب الأستاذ بريستيد ٨ ٥٦٠

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

مشاهير الحكماء

جميعكم أيها الحكماء المتمتعون بالشهرة ، قد خدمتم الشعب ومايؤمن به من خرافات ، ولو أنكم خدمتم الحقيقة لما كرمكم أحد ، ومن أجل هذا احتمل الشعب شكوككم فى بيانكم المنمق لأنها كانت السبيل الملتوى الذى يقودكم إليه . وهكذا يوجد السيد لنفسه عبيداً يلهو بضلالهم الصاخب . وما الانسان الذى يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذى لا يتعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب

إن ما حسبه الشعب فى كل زمان روحاً للعدل إنما هو العدو الكامن المترصد لروح الحرية يستنبح عليها أشد كلابه افتراساً وقد قيل فى كل زمان (لا حقيقة إلا فى الشعب فويل لمن يطلبها خارجاً عنه)

لقد أردتم أن تؤيدوا الشعب فى ما يبدى من خشوع وإجلال ، فدعوتم هذه المذلة (إرادة الحق) فيا لكم من حكماء

غير أنكم كنتم تقولون فى أنفسكم لقد نشأنا من الشعب وصوت الشعب هو صوت الله فكنتم كالحمار الصبور المراوغ تعرضون وساطتكم على الشعب ، ولكم من ذى سلطان أراد ان توافق عجلته ذوق الشعب ففطر لجرها حمارا صغيرا ، حكيما مشهورا ...

فيامشاهير الحكماء ، إنى أطلب منكم أن تخلعوا عنكم ما تتلبسون به من جلود الأسود وجلود الوحوش الكاسرة المخططة وفراء المستكشفين للمجاهل والفاتحين . إذ لا يسعنى أن أؤمن بالحقائق التى تنادون بها مالم تقلعوا عن بذل التبجيل والتعظيم ، فما رجل الحق إلا الضارب فى القفار ولا إله له لأنه